

كلية الآداب واللغات

قسم الآداب واللغة العربية

المادة: السرديات

التخصص: نقد أدبي حديث ومعاصر

المستوى: ثانية ماستر

السنة الجامعية: 2019-2020

### المحاضرة السادسة:

#### بنية الخطاب السردى: 3- الشخصية في السرد

لا يكتمل الحديث عن السرد بوجه عام إلا إذا اقترن بالحديث عن الشخصية التي تتحرك في إطاره كقوة فاعلة و مؤثرة تضطلع بشتى الأفعال في المسار السردى للرواية لذلك فقد أولاهما النقد عناية خاصة، فاهتم بمفهومها و أنواعها و بكيفية رسمها و إخراجها للقارئ، فهي ليست معطى قبليا و كليا، و تحتاج إلى بناء تقوم بانجازه الذات المستهلكة للنص زمن فعل القراءة<sup>(1)</sup>. و إن كان «التصور التقليدي للشخصية غالبا ما يخلط بين الشخصية الحكائية و الشخصية في الواقع العياني»<sup>(2)</sup>. في حين تنظر إليها البنيوية المعاصرة (Personnage)<sup>(3)</sup>. و تركز الدراسات السيميائية *sini fié* و الآخر مدلول *sini fiant* على أنها بمثابة دال على سيمياء الشخوص و تؤكد على أهميتها كفواعل و صناعات أحداث «لابد للشخصية الرئيسية من أن تكون متميزة بوجودها و عواطفها و بنظرتها إلى الآخرين و إلى العالم المحيط بها»<sup>(4)</sup>. تسهم الشخصية في الكشف عن القوى التي تحرك الواقع من حولنا و عن ديناميكية الحياة و تفاعلها فالشخصية من المقومات الأساسية للرواية و دون الشخصية لا وجود

(1) ينظر: هامون (فيليب): سيميولوجية الشخصيات الروائية، تر. سعيد بن كراد، دار الكلام، الرباط، المغرب، ط1، 1990، ص 09.

(2) حميد لحميداني: بنية النص السردى، المرجع السابق، ص 50.

(3) ينظر: المرجع نفسه، ص 51.

(4) لطيف زيتوني: مصطلحات نقد الرواية.

للرواية<sup>(5)</sup>. و هذا ما تفتن له رواد الرواية التقليدية و بخاصة زولا و بلزاك فأولوا اهتماما خاصا للشخصية و قد دفعهم إلى ذلك سيطرة النزعة التاريخية و الاجتماعية و الأيديولوجيا السياسية من جانب آخر على خلاف الروائيين الجدد الذين لم يكثرثوا للشخصية و دعوا إلى التقليل من شأنها و بالتالي تقليص دورها و قد أطلق بعضهم (كافكا) على شخصياته رقم حتى يفقدها كل عاطفة و قدرة على التفكير<sup>(6)</sup> و قد يتوهم القارئ أن الشخصية كائن إنساني ذو وجود تاريخي إلا أن الشخصية لا تعدو أن تكون أداة ضمن الأدوات التي يصطنعها الراوي لبناء عمله الفني، شأن اصطناعه اللغة و الزمان و الحيز و غير ذلك من العناصر الفنية و التي تشكل في تضافرها ما يسمى بالإبداع الفني أو الأدب، و تكون هذه العناصر من خلال هذا التلاحم متفاعلة مع الشخصية متأثرة بسلوكها أو مؤثرة فيه

لقد حرص الروائيون على اختيار المكان الملائم للشخصية حتى يتمكن من إبراز سلوكها و مختلف ملامحها و أصبح هذا الأخير مرجعا لهذه السلوكات و الملامح. و يمكن لنا أن نتوسع في التنويه إلى العلاقة بين المكان و الإنسان«لكن لا ينبغي لنا أن نخلط بين تأثير المكان الروائي على الشخصيات الروائية و تأثير المكان الموضوعي على حركة الثقافة و طبيعتها في الواقع الموضوعي و التاريخي.

إن ما يؤكد ارتباط المكان الروائي بالشخصية هو طبيعة العلاقة بين الإنسان و محيطه و هذا ما تؤكدته الدراسات الإيكولوجية<sup>(\*)</sup> التي ما فتئت تنوه إلى ارتباط الإنسان بالمكان الذي يعيش فيه بوصفه ظاهرة جغرافية طبوغرافية (Topographique) و ثقافية و سيكولوجية تشارك بقوة في صياغة منظومة عن ذهنيته و يرصد مستوى وعيها و درجة تطورها و ازدهارها و هو ما يكرسه التصور الذهني للإنسان القائم على اتجاهات مكانية. بل إن أخلاق الناس كما سيذهب صاحب المقدمة<sup>(\*\*)</sup> تابعة للمناخ و متأثرة بالبيئة الطبيعية فعوامل الطبيعة لها تأثير على الحياة الإنسانية في تجمعها و تقدمها و تخلفها و في

(5) ينظر: شكري عزيز ماضي: فنون النثر العربي الحديث، منشورات جامعة القدس، ط1، 1996، ص 36.

(6) ينظر: عبد الملك مرتاض: في نظرية الرواية، المرجع السابق، ص 86. 87.

(\*) الإيكولوجيا (Ecology): فرع من العلوم يتناول العلاقات المتبادلة بين الفرد و البيئة كما يتناول أيضا الجغرافيا البشرية أي دراسة العلاقات المتبادلة بين الأفراد (أو الجماعات) و البيئة الطبيعية التي يعيشون فيها و التفاعل الإيكولوجي أي دراسة أنماط العلاقات الوظيفية المكانية التي تنشأ و تتغير خلال عمليات هذا التفاعل (غيث لمحمد عاطف)، قاموس علم الاجتماع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، د.ط، 1979، ص 144).

(\*\*) ابن خلدون (عبد الرحمن): المقدمة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت، ص 65. 68.

أخلاقها(7). كما أن الوسط الجغرافي المحيط بالإنسان يتسم بأهمية كبيرة بالنسبة لتطور المجتمع البشري و تحديد خواصه فطبيعة ذلك المسرح الذي تدور في رحابه الحياة بكاملها يفور الإنسان عليه بوسائل لازمة لحياته. لأن البيئة قد تعجل أو تبطئ سير المجتمع. و لكن «هذا التأثير ليس مقررا لأن تغيرات المجتمع تجري بوتيرة أسرع بكت"ير من تطور البيئة الجغرافية»(8). و يعمل الإنسان دائما عن حاجته إلى إقرار وجوده و البرهنة على كينونته من خلال الإقامة في مكان ثابت سعيا وراء رغبة متأصلة في الاستقرار و طلب الأمن للذات(9) و إذا ما تحرك (الإنسان) فإن حركته تكون مقصودة فحركة البدوي في الصحراء – على سبيل المثال- هادفة و محددة من المناطق الجذباء في مواسم الجفاف إلى المراعي في مواسم المطر(10).

لقد أردك الروائيون هذا الواقع الموضوعي فركزوا اهتمامهم على العلاقة بين الشخصية و المكان و وجد من بينهم من يولي هذه العلاقة عناية فائقة فلا يشيد الفضاءية المكانية للرواية إلا باستحضاره للشخصيات الذي يفترض ديناميات متنوعة«من استعراض و اختراق و انتقال و بناء و رحيل و دفاع و تشبث مع ممارسة متنوعة على صعيد العلاقات الإنسانية»(11). فليس هناك بالنتيجة أي مكان محدد مسبقا و إنما تتشكل الأمكنة من خلال الأحداث التي يقوم بها الإبطال و من المميزات التي تخصهم(12).

و على صعيد التنظير النقدي (الروائي) ظهرت بعض التصورات التي حاولت طرح علاقة المكان بالشخصية: فمن رؤية تقول بمطابقة الشخصية للمكان لأنه دال على الإنسان و هو و إن كان كما يقول شارل كريفل (Charl crivel)، "مؤسس الحكيم" و أن وجوده في الرواية «يقتضي وجود شخصية و ليس العكس و ما وصفه في حقيقة الأمر إلا مجرد وصف

---

(7) ينظر: إدريس خيضر: التفكير الاجتماعي الخلدوني و علاقته ببعض النظريات الاجتماعية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ط، 1983، ص ص 106. 107.

(8) فاضل الأنصاري: الجغرافيا الاجتماعية، المطبعة التعاونية، مديرية الكتب الجامعية، دمشق، سوريا، ص 127.

(9) ينظر: بحراوي (حسن): بنية الشكل الروائي، المرجع السابق، ص 29.

(10) ينظر: نبيل صبي حنا: المجتمعات الصحراوية في الوطن العربي، (دراسات نظرية و ميدانية)، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط1، 1984، ص 20.

(11) خالد حسين: شعرية المكان في الرواية الجديدة، المرجع السابق، ص 99.

(12) حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي، المرجع السابق، ص 61.

للشخصية فإذا ما وصف المكان. فإن هذا الوصف يعتبر وصفا للإنسان<sup>(13)</sup>. حيث يبدو المكان وكأنه نسخة لسلوك و طباع الشخصية، يختزن مشاعرها و أفكارها التي قد تعكسها مظاهره الحياتية. إلى رؤية تولي الشخصية أهمية كبيرة في تشكيل المكان و رسم معالمه تذهب إلى أن المكان «ليس له قيمة تذكر- نظرا لجموده ما لم تتخلله حركة الشخصيات و لن يقوم وجود لأي دراما أو وجود ليحدث ما لم تلتق شخصية بأخرى في بداية القصة و في مكان ما»<sup>(14)</sup>. و في واقع الأمر يقتضي المكان وجود شخصيات و هي الأخرى لا تحقق وجودها إلا في مكان يدل «على موقعها و حالتها الشعورية و كذا وجهة نظرها. يرمز لوعيها و لا وعيها و إلى إرادتها و رغبتها و كذا اختبارها و حلمها و رؤيتها إلى باقي الشخصية و الأشياء في المكان و الزمان»<sup>(15)</sup>.

لقد أفاد الروائي من المكان في الكشف عن مزاج الشخصية و طبعها و مستواها الاجتماعي و بعدها الفكري و الثقافي؛ لأنه يدرك أن مظاهر الحياة الخارجية من مدن و منازل و أثاث...تذكر لأنها تكشف عن حياة الشخصية<sup>(16)</sup>. «عن نفسياتها و ثقافتها و هويتها. و وصف الأثاث هو نوع من وصف الأشخاص الذي لا غنى عنه فهناك أشياء لا يمكن أن يفهمها القارئ و يحسها إلا إذا وضعنا أمام ناظره الديكور و توابع العمل و لواحقه»<sup>(17)</sup>. و بخاصة تلك التي تساهم في تدعيم العنصر الانفعالي في القصة و إبراز الجانب المعنوي للشخصيات<sup>(18)</sup>.

و كما في الواقع الموضوعي، تنتج الأمكنة الروائية شخصياتها و تحدد أبعادها و ملامحها الجسدية و النفسية، و يعمل الروائي على «أن يكون بناؤه منسجما مع مزاج و طبائع شخصياتها و أن لا يتضمن أية مفارقة، و ذلك أنه من اللازم أن يكون هناك تأثير متبادل بين

(13) رينيه و بليك و اوستن وارين: نظرية الأدب، تر. محي الدين صبحي، مطبعة خالد طرابلسي، دمشق، سوريا، 1972، ص .

(14) المرجع السابق، ص 146.

(15) محمد سويتري: النقد البنيوي و النص الروائي (نماذج تحليلية من النقد العربي (الزمن، الفضاء، السرد)، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، دبت، ط2، ص 92.

(16) ينظر: حسن حجاب الحازمي: البطل في الرواية السعودية (دراسة نقدية)، جازان الأدبي المملكة العربية السعودية، ط1، 2000، ص 213.

(17) بوتور (ميشال): بحوث في الرواية الجديدة، المرجع السابق، ص 53.

(18) أحمد طالب: الالتزام في القصة الجزائرية المعاصرة (في الفترة ما بين 1931-1976)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1989، د.ط، ص 220.

الشخصية و المكان الذي تعيش فيه بحيث يصبح بإمكان بنية الفضاء الروائي أن تكشف لنا عن الحالة الشعورية التي تعيشها الشخصية بل و قد تساهم في التحولات التي تطرأ عليها»<sup>(19)</sup>.

و بما أن الأمكنة تتشكل من خلال الأحداث التي يقوم بها الأبطال فإن «الروايات التي تتخذ من الريف مكانا لها تختلف في أحداثها و شخصياتها و صراعاتها عن تلك التي تتخذ من المدينة مجالا لحركتها و التي تحدث في أحياء الشعبية غير التي تحدث في الأحياء الراقية»<sup>(20)</sup>، لكل نوع من الأماكن السابقة تاريخه الخاص و قضاياها و انشغالاته الحياتية الخاصة و شخصياته التي تتصارع في المكان و معه عندما يحاصرها هذا الأخير بأنماط ثقافية، فيحدد حركتها و نشاطها و قد يحاصرها بعباداته و تقاليده فيعيقها و يسيطر عليها.

و إذا ما عانت الشخصية من غياب شروط العدالة و الحرية و المساواة يسودها التوتر و القلق و تشتد عليها ضغوطات المكان مما يفقدها ذاتها و يحرمها «التمتع بالجانب الإنساني مما يؤدي إلى قطع الروابط الاجتماعية و فقدان معاني الحياة»<sup>(21)</sup>.

و من هنا فإنه لا يمكن فهم الشخصية الإنسانية منعزلة عن طبيعة البناء الاجتماعي الذي تتفاعل معه فكل تغير في البناء الاجتماعي يخلف أثارا واضحة في بناء الشخصية الإنسانية و في إطار الشخصية يمكن رؤية البناء الاجتماعي القائم و تقدير مشاركته و تحديد نمطه<sup>(22)</sup>. و هذا ما ينطبق على الشخصيات الروائية باعتبارها نماذج تعادل الشخصيات على أرض الواقع.

قد يقيم المكان علاقة تعايش مع شخصياته. مما يجعلها تتجاوز السطحية الواقعية الحادية للأشياء إلى العمق الوجودي، حيث تتماهى الذات مع أشياء الوجود، لتعيد صياغة نفسها من جديد عبر السياق اللغوي ذاته<sup>(23)</sup>.

(19) ينظر: حسن بحراوي: بنية النص السردية، المرجع السابق، ص 30.

(20) حسن حجاب الحازمي: البطل في الرواية السعودية، المرجع السابق، ص 459.

(21) ناجي الجبوش: الانتحار، (دراسة نفسية و اجتماعية)، الشبيبة للطباعة و النشر، دبت، دبط، ص 50.

(22) ينظر: أحمد التكلوي: الإنسان و التحديث (قضايا فكرية و دراسات واقعية)، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، مصر، 1980، دبط، ص 376.

(23) ينظر: محمد الحرز: شعرية الكتابة و الجسد (دراسات حول الوعي الشعري و النقدي)، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت (لبنان)، ط1، 2005، ص 71.

و من الممكن أن يتحول المكان عبر عملية التخيل الروائي إلى شخصية و يبدو في صورة «كائن يفعل في اتجاه إحداث التأثير المناسب (...)» و يعتبر نطق الشيء (Prosopopée) من المميزات الأساسية التي تستوعبها الرواية»<sup>(24)</sup>.

و إذا ما تأسس المكان و تحول إلى شخصية، فإنه يصبح لا محالة بمثابة «محور حقيقي يقتحم عالم السرد محررا نفسه من أغلال الوصف»<sup>(25)</sup>. و تخرج معه الكتابة السردية من أسلوب السرد الواقعي إلى أسلوب السرد الشعري الممتزج بالخيال الواسع و لغته القائمة على الاختزال و التكثيف التي تقوم بتحويل الواقع الذاتي أو الموضوعي الخارجي غل رؤية فنية لا تتطابق مع المراجع المستمدة منها<sup>(26)</sup>. تمتلك قدرة على إجلاء الخفي و التعرف على «تجليات العالم الخارجي الذي يصبح أكثر حيوية و حياة و إنسانية»<sup>(27)</sup>. عندها يصبح المكان فعلا روائيا أي «موضوعا للخطاب الروائي أو موضوعا للفعل (Topicof Discours)»<sup>(28)</sup>. على حد قول الناقد سعيد يقطين لأن الضرورة الفنية تقتضي أن يخلق الروائي مجاورات جديدة بين الأشياء و الأفكار تتجاوز و طبيعتها الفعلية حتى تتكشف على أساسها لوحة جديدة للعالم تكون مشبعة بضرورة داخلية حقة<sup>(29)</sup> و من هنا يأتي ثناء الناقد رولان (بورناف) (Reland Borneuf) على الرواية الحديثة التي جعلت من المكان عنصرا حكايا بالمعنى الدقيق للكلمة<sup>(30)</sup>.

و حينما يؤنس المكان الروائي يتحول إلى رمز أو قناع يخطي المباشرة و السطحية و يسمح لمختلف الرؤى من أن تتسرب من خلاله إلى النص الذي يكون قد امتص الواقع المعيش و أعاد إنتاجه.

إن ترميز المكان يبعد الروائي عن الكتابة التقريرية المباشرة في محاولة لمقاربة الواقع المعيش و تعميق الوعي المعرفي/ الجمالي بالعالم عبر شعرنة المكان و الكشف عن الرابطة

(24) محد سويتري: النقد البنيوي و النص الروائي، المرجع السابق، ص 79.

(25) حميد لحميداني: بنية النص السردية، المرجع السابق، ص 71.

(26) عثمان بدري: وظيفة اللغة في الخطاب الروائي الواقعي عند نجيب محفوظ، موفم للنشر و التوزيع، الجزائر، ط1، 2000، ص 309.

(27) أحمد مرشد: ألسنة المكان في روايات عبد الرحمن منيف، دار الوفاء للطباعة و النشر، الإسكندرية، ط1، 2003، ص 09.

(28) سعيد يقطين، قال الراوي

(29) ينظر: ميخائيل باختين: أشكال الزمان و المكان، المرجع السابق، ص 120.

(30) ينظر: حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي، المرجع السابق، ص 27.

العميقة بين الشخصية و المكان الذي تسكن فيه و تحويله إلى طريقة يستطيع الروائي أن يوحي به عن حالة نفسية أو أن يعبر به عن طموحات أحد أبطاله<sup>(31)</sup>. إلا أن هذا التلازم بين كل من المكان و الشخصية المؤدي إلى تبادل الدلالات بينها، لا يقتضي أن تخضع الشخصية لهيمنة المكان خضوعا كلياً، و إنما قد يحدث العكس فتؤثر الشخصية على المكان و هذا التأثير قد يكون سلبياً أو إيجابياً.

و على الرغم من تساؤل أدوار الشخصية و انحسارها لصالح وصف الأشياء نظراً لتدهور قيمة الإنسان/ الذات و تغير مفهومه، مما أدى إلى نشؤها كما يلاحظ ذلك في الكتابات الروائية الجديدة، إلا أنها كما يرى الآن روب غرييه موجودة في هيكل الرواية و«الإنسان حاضر فيها دائماً في كل صفة و في كل سطر، و في كل كلمة و حتى لو كان في هذه الكتب أشياء كثيرة موصوفة بدقة، فهناك دائماً و أبداً النظر الذي شاهدها، و الفكر الذي أعاد مشاهدتها و العاطفة التي شوهتها، إن الأشياء [كما يقول] لا تتمتع بأي حضور خارج مجالات الرؤية الواقعية منها و الخيالية»<sup>(32)</sup>. ذلك أن الشخصية في مقل هذا النوع الروائي هي التي تلون الأشياء بعواطفها و مشاعرها و تضيء عليها من نفسها و تجاربها المختلفة.

و لا يقف أثر الشخصية في المكان عند هذا الحد، بل يتجاوز إلى إبداع أماكن غير مألوفة تعد نقيضاً للمكان الإنساني المألوف، كأن يجنح الروائي بأماكنه الجديدة هذه إلى الغرابة نتيجة ما تعيشه شخصياتها من تمزق و ضياع مثلما يحدث ذلك مع شخصيات الرواية الجديدة، و قد ينقل القارئ إلى أجواء أسطورية أو ميتافيزيقية«ينفلت فيها المكان من واقعيته و أبعاده الاقليدية إلى أبعاد متعدد مفتوحة لا يتكون العالم الروائي فيها من الوجوه الهندسية البسيطة لأنه ينتج من أشكال جد معقدة»<sup>(33)</sup>، و يستمد من فن العجائبي و الخوارق الذي لا تحده حدود<sup>(34)</sup>، بحيث تجيء أوصاف المكان و ميزاته في خضم هذه الشروط، ملتعبة و عميقة من خلال الرغبة في القبض على الذرات غير المرئية في ذلك الفضاء المولد للتعجب<sup>(35)</sup>. و هذه اليوطوبيا (U- Topia) قد تفيض على شخصيات الرواية راحة نفسية

(31) حسين (خالد): شؤون العلامات (من التفسير إلى التأويل)، المرجع السابق، ص 129.

(32) غرييه (الآن روب): نحو رواية جديدة، المرجع السابق، ص 122.

(33) ينظر: شعيب حليفي: شعرية الرواية الفانتاستيكية، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2009، ص 192.

(34) ينظر: كمال أبو ديب: الأدب العجائي و العالم الغرائبي، دار أوركس للنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2007، ص 09.

(35) المرجع السابق، ص 173.

أبدية و آمالا تشعرها أن الحياة مفعمة بالجمال و العطاء أو نقيض عليها مشاعر نقيضة من الرعب و الغموض المفضي للتوتر و القلق.

لقد استطاعت الرواية أن تجسد العلاقة بين الشخصية و المكان بالرغم من تحول هذا الأخير و تغير أحواله للسلب أو الإيجاب و هي العلاقة التي يمكن أن تعبر عليها الصلات الآتية:

1- *التفاعل الإيجابي (التجاوب مع المكان):* و فيه تؤثر الشخصية في المكان و يؤثر فيها.

2- *التفاعل السلبي (التنافر):* كأن يكون المكان ريطي والشخصية ذات طموح و ملامح مدينية تحاول إعلان انسلاخها عن المكان.

3- *علاقة حياد:* و فيها لا تتأثر الشخصية بالمكان و لا يؤثر فيها فكل منهما منفصل عن الآخر (36).

---

(36) أحمد خليل الموسوي: آفاق الرواية (بنية و تاريخا و نماذج تطبيقية)، مطبعة اليازجي، دمشق، سوريا، ط1، 2002، ص 36.